

## العقيدة والايديولوجية

2017/5/31

يستخدم معظم الناس كلمتي العقيدة والايديولوجية بوصفهما يعينان الشيء نفسه، ومع أن كل ايديولوجية تنبع من عقيدة وترجع إليها، إلا أن هناك فرقا بين العقيدة والايديولوجية. ويمكن تعريف العقيدة بأنها "فلسفة اجتماعية شمولية تدعي المثالية، وتقوم على الايمان بحتميات غيبية أو تاريخية، الأمر الذي يجعلها تُمثل رؤية مميزة للكون والحياة والآخر". وتعتبر الديانات المختلفة، إلى جانب المنظومات الفكرية القائمة على القومية والماركسية والرأسمالية، اهم الفلسفات الاجتماعية في عصرنا هذا. أما الايديولوجية فيمكن تعريفها بأنها "عقيدة تم تحويلها إلى حركة سياسية بهدف الاستيلاء على الحكم، واستخدامه أداة لإعادة تشكيل الواقع الحياتي في المجتمع كي يعكس الصورة المثالية التي تتبناها العقيدة وتؤمن بها".

وتنقسم الفلسفات الشمولية إلى ثلاثة فئات: فلسفة ثقافية اجتماعية، أي دينية تقوم على الايمان بوجود قوة خارقة تتحكم في مصير الإنسان والكون؛ وفلسفة اجتماعية سياسية، أي قومية تقوم على الايمان بأن الشعوب تنقسم إلى أعراق، وأن من حق كل شعب ينتمي لعرق معين ان يتوحد ويتمتع بالحرية، ويكون له وطن مستقل خاص به؛ وفلسفة اجتماعية اقتصادية، أي ماركسية ورأسمالية تقوم على الايمان بأن الاقتصاد هو المحرك الالهام للتاريخ. لكن الماركسية والرأسمالية تختلف عن بعضها البعض في رؤيتها لأسلوب عمل الاقتصاد وعلاقات الإنتاج الاجتماعية، وحقوق المشاركين في عملية الإنتاج الاقتصادية. إذ فيما تنادي الماركسية بوجود تحقيق العدالة في توزيع عوائد العملية الإنتاجية على المشاركين فيها، تنادي الرأسمالية بوجود تحقيق الكفاءة في العملية الإنتاجية. وهذا يجعل جميع الفلسفات الشمولية هذه افكارا خلاقة تسعى، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة وأساليب عمل مختلفة، إلى تحسين نوعية الحياة بالنسبة لعامة الناس، وتعزيز منظومات القيم، والاسهام في تحقيق التقدم واستتباب الأمن والاستقرار.

فيما تقول الفلسفة الدينية الإسلامية إن الله يَعدُّ المؤمنين بما جاء في القرآن بالجنة وغير المؤمنين بعذاب النار، فإن الايديولوجية الدينية النابعة من الإسلام ترسم صورة مثالية للمجتمع المسلم أساسها العدل والفضيلة، ما يجعل الايديولوجية الدينية هذه ترى أن من واجبها تحقيق الوعد الإلهي وإقامة المجتمع المثالي. أما الفلسفة القومية، وبسبب ايمانها بنقاء بعض الأعراق وتفوقهم على غيرهم، فإن المجتمع الذي تسعى الايديولوجية القومية إلى إقامته يتصف عموما بالعنصرية والتفرقة ضد غير المنتمين إليها من الناس؛ الامر الذي يجعل الايديولوجية هذه تتنكر لحقوق غيرها من البشر، وتميل إلى حرمانهم من بعض حقوقهم المشروعة. اما الفلسفة الرأسمالية فقد تطورت بصورة تلقائية كنظام اقتصادي في أعقاب انتشار المصانع في بريطانيا ووقوع الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ما جعل الايديولوجية الرأسمالية تتبنى فكرة السوق الحر وحرية العمل الاقتصادي، وتنادي بضرورة امتثال المنتجين والمستهلكين لقوى السوق بعيدا عن الاحتكار ورقابة الدولة. أما الماركسية فقد جاءت كرد فعل على الظلم والاستغلال الذي مارسه رأس

المال في بدايات العصر الصناعي بحق العمال والنساء والأطفال، ما جعل الايديولوجية الماركسية تنادي بإعادة تشكيل المجتمع الرأسمالي على أسس جديدة تمحو آثار الظلم، وتقضي على أسباب الاستغلال وقوى التحكم الاجتماعية. لذلك، فيما تنادي الماركسية بإزالة الطبقة من المجتمع، واستيلاء العمال على ملكية وسائل الإنتاج؛ فإن الرأسمالية تنادي بحرية الاقتصاد، وتحرير الإنسان والمجتمع من كافة القيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية التي تكبلهم.

وهكذا فيما يسعى الدين إلى إقامة مجتمع الفضيلة، وتسعى القومية إلى تمكين كل مجتمع متجانس من الاستقلال والحرية، فإن الماركسية تسعى لإقامة نظام اقتصادي عالمي عادل، فيما تسعى الرأسمالية لإقامة مجتمع الكفاءة في استخدام الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة. مع ذلك يشير التاريخ إلى أن كل ايديولوجية قامت أثناء سعيها لتحقيق أهدافها باستخدام أساليب تتناقض مع مبادئها، ما جعلها تلجؤ إلى الخداع والتزييف والعنف، وتقوم غالبا بفرض رؤيتها على غيرها من البشر بقوة الاكراه، الأمر الذي جعل الايديولوجيات جميعا تفشل في تحقيق أهدافها الإنسانية.

الفلسفة الاجتماعية الشمولية إذن هي فكرة خلاقة في الأساس، لكن تحويلها إلى ايديولوجية يجعلها تغدو حركة سياسية تسعى لتغيير المجتمع الذي تنشط فيه باستخدام ما لديها من عناصر القوة. ولما كان من الصعب اقناع إنسان بفلسفة شمولية باستخدام المنطق أو العقل أو العلم وحده، فإن كافة الفلسفات الاجتماعية تحولت إلى ايديولوجيات مسلحة بسلاح العنف والإكراه، فيما تحول كافة القادة الايديولوجيين إلى حكام مستبدين. مع ذلك، تمكنت كل ايديولوجية مع تقادم الزمن من الانتشار والتوسع، وكسب شرعية في غياب أي برهان علمي أو تجربة إنسانية أو أسبقية تاريخية تسندها. ومع أن هذا الأمر يتناقض مع العقل والمنطق، إلا أن الايمان بالعقيدة التي تقف خلف كل ايديولوجية ما زال قويا، والتعصب لها ما زال شديدا، والخروج عليها يعتبر معصية لا تُغتفر.